٥٩ العبادة والطاعة والنية لإله واحد

عن الضحاك بن قيس الفهري قال : قال رسول الله ﷺ :

((إنَّ اللهَ عز٦ وجل يقول : أنا خير شريك ، فمَنْ أشرك معي شريكاً فهو لشريكي ، يأيها الناس أخلصوا أعمالكم لله عز وجل فإن الله لا يقبل إلا ما أُخلص له ، ولا تقولوا: هذا لله وللرحم ، فإنها للرحم وليس لله منها شيء . ولا تقولوا : هذا لله ولوجوهكم ، فإنها لوجوهكم ، وليس لله منها شيء)) (١)

ثم يَصِف الحقُّ سبحانه عباده بصفة أخرى ، قد يسأل سائل عنها ويقول : أبعد كل هذه الصفات لعباد الله نطلب منهم أنْ لا يدْعوا مع الله إلهاً آخر ، وهم ما اتصفوا بالصفات السابقة إلا لأنهم لا يشركون مع الله أحداً ، ولا يدعون أحداً إلا الله .

إن الحق سبحانه جعل هذه القصية أساسَ الإسلام وكل دين ، بل هى

(١) أخرجه الدارقطني في سننه من حديث الضحاك ، وذكره في الاتحافات السنية وعزاه للخطيب في المتفق والمفترق ، وانظر مجمع الزوائد للهيثمي (١٠ / ٢٢١) .

الـــركن الـــركين فيه ، فلا يصحّ للإنسان عملٌ أو قول إلا إذا كان خالصاً لله وحده .

فإذا كان عباد الله يمشون على الأرض هَوْناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالـــوا ســـلاماً ، ويبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً ، ويقولون : ربنا اصرف عنا عذابَ جهنم ، وإذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكانوا بين ذلك قواماً .

كـــلُّ هـــذه الصفات يحتاج إلى إخلاص النية وصدق التوجه إلى الله ، وكمـــا قال رسول الله : ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكلّ امرىء ما نوى ، فمَـــنْ كانـــت هجـــرته إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله ومَنْ كانت هجرته لدُنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)) [1]

فقـــد يفعـــل مجمـــوعةٌ من البشر عملاً واحداً ، ولكنَّ كُلاًّ منهم له نية تخـــتلف عن نية الآخر ، ويعطينا الحديث الشريف مثالاً من أهم شيء حدث فـــي تاريخ المسلمين ، وهو هجرة المسلمين مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة .

فمـــنهم مَـــنْ هاجر قاصداً الله ورسولَهُ ، وابتغاءَ مرضاتهما ، وهرباً بديـــنهم مـــن إيـــذاء وفتنة المشركين لهم ، ومنهم مَنْ كانت له نيةٌ أخرى ، وهاجر لغرض آخر ، وهو اللحاق بامرأة يحبها ، ولكنها أسلمت وهاجرت ، فهاجـــر وراءهـــا ، وقد اشتُهر في هذا قصة مهاجر أم قيس ، حتى أن ابن

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر . قال الشافعى : هذا الحديث ثلث الإسلام ، و يدخل فى سبعين باباً من أبواب الفقه . وقال ابن مهدى وغيره : ينبغى لمن صنف كتاباً أن يبدأ بهذا الحديث تنبيهاً للطالب على تصحيح النية.

مسعود قال : مَنْ هاجر يبتغى شيئاً فهو له[1] .

قال ابن مسعود : كان فينا رجلٌ خطب امرأة يُقال لها : أم قيس . فأبَتْ أنْ تزوَّجه حتى يهاجر ، فهاجر ، فتزوجها ، فكُنَّا نسميه مهاجر أم قيس .

وسائر الأعمال كالهجرة فى هذا المعنى ، فَصَلاحها وفسادها بحسب النية الباعثة عليها ، كالجهاد والحج ، وقد سُئِل النبى ﷺ عن اختلاف نيات الناس فى الجهاد وما يُقصد به من الرياء وإظهار الشجاعة والعصبية وغير ذلك : أىُّ ذلك فى سبيل الله ؟ فقال[2] : ((مَنْ قاتل لتكون كلمةُ الله هى العليا فهو فى سبيل الله)) فخرج بهذا كلُّ ما سألوا عنه من المقاصد الدنيوية .

وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ((إن أولَ الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استُشهد فأُتيَ به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : قاتَلتُ فيك حتى استشهدْتُ . قال : كذبْتَ ، ولكنك قاتلتَ ، لأنْ يُقالَ : جرىء ، فقد قيل . ثم أُمِر به فسُحب على وجهه ، حتى أُلقِى فى النار)) .

((ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن ، فأُتِى به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : تعلمْتُ العلم وعلَّمته وقرأتُ فيك القرآن . قال : كذبْتَ ، ولكنك تعلمتَ العلم ليُقال : عالم . وقرأتَ القرآن ليقال : هو قارىء، فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلْقِىَ فى النار)) .

---

(١) ذكره ابن رجب في جامع العلوم ص ٢٣ ، وعزاه لوكيع في كتابه عن الأعمش بسنده

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٢٣٠) وكذا مسلم (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعري أن أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليُذكر ، والرجل يقاتل ليُرَى مكانه ، فمَنْ فى سبيل الله ؟ فقال ﷺ : ((من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو فى سبيل الله)) .

((ورجـل وسَّـع اللهُ عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأُتِيَ به ، فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : ما تركتُ من سبيل تحب أنْ يُنْفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك . قال : كذبْت ، ولكنك فعلْتَ ليُقال : هو جَوَاد ، فقد قيل ثم أُمِر به ، فَسُحِبَ على وجهه ، حتى أُلْقِي فى النار)) [1]

لذلك كان قَوْلُ الحق سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف]

فالناس يعملون الخير لغايات رسمها الله لهم فى الجزاء ، ومن هذه الغايات الجنةُ ونعيمها ، لكن هذه الآية تُوضِّح لنا غايةً أسمى من الجنة ونعيمها ، هى لقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم ، فقوله تعالى : ﴿ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف] يصرف النظر عن النعمة إلى المُنعِم تبارك وتعالى .

فمَنْ أراد لقاء ربه ، لا مجرد جزائه فى الآخرة فليعمل عملاً صالحاً ، ثم لا يشرك مع الله أحداً . لا فى عمله ، ولا فى نيته .

فـبعض البـشر تـوجد عـندهم صفات الأريحية والإنسانية ، ويأمر بالمعـروف وينهـى عن المنكر ، ويصنع الخير ، ويُقدم الصدقات ، ويُقيم المؤسسات رعايةً للمحتاجين والعاجزين ، سواء كانت صحية أو اقتصادية ،

---

(١) أخـرجه أحمد فى مسنده (٢ / ٣٢٢) ومسلم فى صحيحه (١٩٠٥) والنسائى فى سننه (٦ / ٢٣ ، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لكنه يفعل ذلك من زاوية نفسه الإنسانية ، لا من زاوية منهج الله ، فيكون كلُّ مـــا فعله حابطاً ، ولا يُعترف له بشيء ؛ لأنه لم يفعل ذلك فى إطار الإيمان بالله .

فـــلا تظن أن الذى يصنع الخير دون إيمان بالله له أجرٌ عند الله ، فالله سبحانه يجازى مَنْ كان مؤمناً به ، وكان الله فى بال العبد ساعة يصنع الخير فمَـــنْ صنع خيراً من أجل الشهامة والإنسانية والجاه والمركز والسمعة فإنه يـــنال جزاءه ممَّنْ عمل له ، وما دام قد صنع ذلك من أجل أن يُقالَ عنه ذلك فقـــد قيل ، إنه ينال جزاء عمله من قول الناس ، لكن الله يجازى فى الآخرة مَنْ كان اللهُ فى باله ساعةَ أن عمل .

فمَنْ عمل عملاً من أعمال الخير وليس فى باله الذى يعطى الثواب وهو الله ، بل كان فى باله الخلق حبط عمله ، يقول الحق سبحانه عن الكافرين : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [آل عمران]

ومعنـــى ﴿ حَبِطَت ﴾ أى : لا ثمرة مرجوة من العمل ، إن كل عمل يعملـــه العاقـــل لا بد أن يكون لهدف يقصده ، فأىُّ عمل لا يكون له مقصدٌ يكون كضربة المجنون ، ليس لها هدف .

إن العاقل قبل أن يفعل أىَّ عمل ينبغى أن يعرفَ الغاية منه ، وما الذى يُحققه من نفع ؟ وهل هذا النفع الذى سوف يحققه هو خير النفع وأدومه ؟ أو هو أقلّ من هذا ؟

وعلـــى ضـــوء هذه المقاييس يحدد العاقلُ عمله ، وحينما يقول الحق

سبحانه وتعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [آل عمران] فهو سبحانه يريد أن يخبرنا أن إنساناً قد يعمل عملاً هو فى ظاهره حير ، فإياك أن تغترَّ أيها المؤمن بأنه عمل خيراً ، لماذا ؟ لأن عمل الخير لا يُحسب للإنسان إلا بنية إيمانه بمَنْ يجازى .

فالإنسان إن عمل عملاً قد تصلح به دنياه فهو عملٌ حسن ، فلماذا يكون عمل هؤلاء الكافرين حابطاً فى الدنيا وفى الآخرة ؟ إنه حابطٌ بموازين الإيمان ، ويكون العملُ حابطاً لأنه لم يصدر من مؤمن ؛ لأن ذلك الإنسان قد عمل العمل ثقةً بنتيجة العمل ، لا ثقةً بالآمر الأعلى ، أما الإنسان المؤمن فإنه حين يقوم بالعمل يقوم به ثقةً فى الآمر الأعلى .

وبعضُ الناس فى عصرنا يأخذون على الإسلام أنه لا يجازى الجزاء الحسن للكفرة الذين قاموا بأعمال مفيدة للبشرية ، يقول الواحد منهم : هل يعقل أحد أن باستير الذى اكتشف الميكروبات ، والعالم الآخر الذى اكتشف الأشعة ، وكلُّ هؤلاء العلماء يذهبون إلى النار ؟

لهؤلاء نقول : الحق بعدالته أراد ذلك ، ولنحتكم نحن وأنتم إلى أعراف الناس ، إن الذى يطلب أجراً على عمل يطلبه ممَّنْ ؟ إنه يطلب الأجر ممَّنْ عمل له ، فهل كان اللهُ فى بال هؤلاء العلماء وهم يعملون هذه الأعمال ؟

إن بالهم كان مشغولاً بالإنسانية ، وقد أعطتْهم الإنسانية التخليد ، وغير ذلك من مكاسب الدنيا . إذن : فإذا كان الجزاء من الله ، فَلْنَا أن نسأل : هل كان اللهُ فى بال هؤلاء العلماء حينما أنتجوا مخترعاتهم ؟

لم يكُنْ فى بالهم الله ، والذى يطلب أجراً فهو يطلبه ممَّن عمل له ، ولم يُضِع اللهُ ثمرةَ عملهم ، بل درَّتْ عليهم أعمالهم الذِّكْرَ والجاه والرفعةَ ، ولم يُضِع الله أجرَ مَنْ أحسن عملاً .

يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

فالله - سبحانه وتعالى - لن يُضيع جر أعمالهم الحسنة ، بل أعطى لهم أجورهم فى الدنيا ، لكن حَرْث الآخرة ليس لهم ، فهم فى ظاهر الأمر يبدو لهم أنهم عملوا أعمالاً حسنة ، ولكنها فى الواقع أعمال باطلة وفاسدة ، وقد يوجد مَنْ عمل عملاً حسناً نافعاً للناس ، ولكن ليس فى باله أنه يفعل ذلك إرضاءً لله ، بل للشهرة لينتشر ذكْره ويذيع صيته ، ويُثنى الناسُ عليه ، أو للجاه والمركز والنفوذ .

ولذلك حين سُئِل رسول الله ﷺ : مَنِ الشهيد ؟ قال : ((مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله)) (١) . لأن الرجل قد يقاتل حميةً ، أو ليعرف الناس مثلاً أنه شجاع ، فقتالُ لرجل دائماً بحَسْب نيته ، فالقتال مرّة يكون فى سبيل الله ، ومرّة يكون فى سبيل النفس ، ومرّة يكون فى سبيل الشيطان .

فالإنسان قد يجاهد حمية أو دفاعاً عن جنسيته ، أو أى انتماء آخر ، وكلُّ هذه الانتماءات فى عُرْف الدين لا قيمةَ لها إلا إذا نبعتْ من الانتماء إلى

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٣) ، وكذا مسلم (١٩٠٤) .

منهج الله ، لتكون كلمةُ الله هى العليا . والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [التوبة]

وقد يطرأ سؤالٌ على خاطر المؤمن ؛ ألاَ يصدر من هؤلاء الأقوام فعل خير ؟ وألاَ يأتى إليهم أدنى خير ؟ ونحن نعلم أن الحق سبحانه يجزى دائماً على أدنى خير .

فـنقول : شَرْط تقبُّل الله لأىِّ عمل إنما يأتى بعد الإيمان بالله ، إما أنْ تعمل وليس فى بالك الله ، فَخُذْ أجرك ممَّنْ كان فى بالك وأنت تعمل ؛ لذلك ضرب الله مثلاً بأعمال الذين كفروا فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور]

فَمنْ فعل شيئاً وليس فى باله الله سيُفاجأ يوم القيامة بأن اللهَ تعالى الذى لـم يكُـنْ فـى باله موجودٌ ، وأنه جَلَّ جلاله هو الذى سيحاسبه ، فصاحب الالتزام بالمنهج يطمئن إلى لقاء ربه ويطمئن إلى جزائه ، أما الذى لا يؤمن بالآخرة فإنه يأخذ من الله الحياةَ فيفنيها فيما لا ينفع ، ثم بعد ذلك لا يجد شيئاً إلا الحساب والنار .

وقـد صـوَّر الحقُّ موقفهم التصويرَ الرائع في هذه الآية . إنه سرابٌ نـاتج عن تخيُّل الماء فى الصحراء ، يتوهمه السائر العطشان فى الصحراء نتـيجة انعكاسـات الضوء ، فيظلّ السائرُ متجهاً إلى وهم الماء ، إنه يصنع

الأمـــل لنفـــسه ، فإذا جاءه لم يجدْهُ شيئاً ، ويُفَاجأ بوجود الله ، فيندم ويتلقَّى العذاب .

كـــذلك لن يُقبل منه ملءُ الأرض ذَهَباً لو أنفقه فى أىِّ خير فى الدنيا ، ولـــن يقبل اللهُ منه ملءَ الأرض ذهباً لو افتدى به نفسه فى الآخرة ، إنْ كان ســـيجد ملءَ الأرض ذهباً ، وعلى فرض أنه قد وجده فهل يجد مَنْ يقبل ذلك منه ؟

لا ، إنه فى الحقيقة لن يجد الذهب ؛ لأنه فى الآخرة لم يَعُدْ يملك شيئاً ، فمَـــنْ فعـــل وليس فى باله الله ، بل كان فى باله المجد وتخليد الذكْر ، فقد أعطتْهم الإنسانيةُ ما يريدون ، فخلَّدتْ ذكراهم وأقامتْ لهم التماثيل ، ومنحتهم الأوسمة ، ووضعتْ فيهم المؤلفات لتمدحهم .

هم قد عملوا للناس فأعطاهم الناس ، فأنت إذا صنعتَ معروفاً تقصد به وجـــهَ الله عز وجل جزاك اللهُ عنه خيراً ، ولكن إنْ عملتَ معروفاً لتحقق به مصلحة دنيوية خاصة بك ، أو تأخذ بها شهرة ، فلا جزاءَ لك عند الله .

ولا بُـــدَّ أنْ يـــصنع الإنـــسانُ المومنُ كلَّ عمل ، وفى باله الله خالقه والمتفـــضِّل علـــيه بالنعم ، فإذا أطعمتَ فقيراً فَلْتُطْعمه لوجه الله ، وعليك ألاَّ تفعل المروءةَ من أجل أنْ يُقال عنك : إنك صاحبُ مروءة .

وعلـــى سبيل المثال ، تلك اللافتات التى تُوضَع على المساجد بأسماء مَنْ قاموا بتأسيسها ، والله عليمٌ بكل شىء ، يعلم اسم مَنْ أقام البناء ، وعليك إذا بنيتَ مسجداً أنْ تُسميَه بأىِّ اسم لا يمتُّ لك بصلة حتى لا تدخلَ فى دائرة ((عملتَ ليُقال وقد قيل)) .

وحتـــى المقاتل الذى يحارب بين صفوف المؤمنين عليه أنْ يعقد النية

لله، لا أنْ يقاتل من أجل أنْ يُقال : إنه شجاع ، لأنه إنْ فعل حبط عمله وكان من الخاسرين لأن عمله قد شَابَهُ الرياء والسمعة .

ولا يهزّ المجتمعات ولا يُزلزلهنّ ويهدّها إلا هذه المراءاة ؛ فالحق يحب أنْ يؤدى المسلمُ كلَّ عمل جاعلاً الله فى باله وهو الذى لا تخفى عليه خافية .

ولذلك تجد الرسول ﷺ ينقل لنا حال المُرائى للناس ، فيقول : إن أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تُراءون فى الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء [1] .

وقال ﷺ : ((إن المُرائى يُنَادَى عليه يوم القيامة : يا فاجر ، يا غادر ، يا مُرائى ، ضلَّ عملك ، وحَبط أجرُك ، فخُذْ أجرك ممَّنْ كنتَ تعمل له)) .

فالمُرائى إنما يخدع نفسه ، فهو يتظاهر بالصلاة ليراه الناس ، ويُزكّى ليراه الناس ، ويحجّ ليراه الناس ، هو يعمل ما أمر الله به لكنه لا يعمل لله .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥ / ٤٢٨ ، ٤٢٩) من حديث محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء . يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناسَ بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟

فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ (١) فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

[البقرة]

فالذى يتصدَّق ويُتْبع صدقته بالمَنِّ والأذى إنما يُبطِل صدقته ، وخسارته تكون خسارتين :

الخسارة الأولى : أنه أنقص ماله بانفعل ؛ لأن الله لن يُعوِّض عليه ؛ لأنه أتبع الصدقة بما يُبطلها من المَنِّ والأذى .

والخسارة الأخرى : هى الحرمان من الثواب ، فالذى ينفق ليقول الناسُ عنه إنه ينفق ، عليه أنْ يعرف أن الحقَّ يُوضِّح لنا : أنه يعطى الأجر على قاعدة أن الذى يدفع الأجر هو مَنْ عملتَ له العمل .

إن الإنسان على محدودية قدرته يعطى الأجر لمَنْ عمل له عملاً ، والذى يعمل من أجل أنْ يقول الناس ؛ أنه عمل فليأخذ أجره من القدرة المحدودة للبشر ، فالذى يفعل الحسنة أو الصدقة ليُقال عنه : إنه فعل ، فإنه يأتى يوم القيامة ، ولا يجد أجراً له .

وإياك أنْ تقول : أنا أنفقتُ ولم يُوسِّع اللهُ رزقى ؛ لأن الله قد يبتليك ويمتحنك ، فلا تفعل الصدقة من أجل توسيع الرزق ، فعطاءُ الله ليس فى الدنيا فقط ، ولكن اللهَ يريد ألاَّ يُعطيك فى الفانية ، وأبقى لك العطاءَ فى الباقية وهى الآخرة ، وهو خَيْرٌ وأبقى .

والحق سبحانه وتعالى يقول عن هؤلاء الذين ينفقون أموالهم رئاءَ

(١) الوابل : المطر الشديد الضخم القَطْر . [لسان العرب - مادة : وبل] .

الـــــناس: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النساء]

إنـــه يريد بالإنفاق مراءاةَ الناس ؛ ولذلك يقول العارفون بفضل الله : اختر مَنْ يُثَمِّن عطاءك فأنت عندما تعطى شيئاً لإنسان فهو يُثَمِّن هذا الشىء بإمكاناته وقدراته ، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك ، لكن العطاء لله كيف يُثَمِّنه سبحانه ؟ لا بُدَّ أنْ يكون الثمنُ غالياً .

إذن : فالعاقـــل ينظر لمن سيعطى النعمة ولنا الأُسْوة فى سيدنا عثمان رضـــى الله عنه عندما علم التجار أن هناك تجارةً آتية له ، جاء كلُّ التجار ليشتروا منه البضاعة ، ثم يبيعوها ليربحوا ، وقال لهم : جاءنى مَنْ يعطينى أكثر من ثمنكم . وفى النهاية قال لهم : أنا بعتُها لله .

إذن : فقـــد تاجر سيدنا عثمان مع الله ، فرفع من ثمن بضاعته فالذى يعطـــى رئاءَ الناس نقول له : أنت خائب ؛ لأنك ما ثمَّنتَ نعمتك ، بل ألقيتَها تافهةَ الثمن ، ماذا سيفعل لك الناس ؟ هم قد يحسدونك على نعمتك ، ويتمنَّوْنَ أنْ يأخذوها منك ، فلماذا تُرائيهم ؟

إذن : فهـــذه صـــفقة فاشلة خاسرة ؛ ولذلك قال سبحانه : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ .. ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة]

ومـــا دام سبحانه هو الذى اشترى فلا بُدَّ أن الثمن كبير ؛ لأنه يعطى النعيم الذى ليس فيه أغيار ، ففى الجنة لا تفوت النعمةُ مؤمناً ولا هو يفوتها،

فالذى يُرائى الناسَ خاسر ، ولا يعرف أصول التجارة ؛ لأنه لم يعرف طَعْم التجارة مع الله .

ولذلك شبّه عمله فى آية أخرى بقوله : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا .. ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة]

والصفوان هو المروة ، وجمعه مَرْو . وهى حجارة بيض براقة ، والمروة ناعمة وليست خشنة ، لكن بها بعض الثنايا يدخل فيها التراب ، ولأن المروةَ ناعمةٌ جداً فقليلٌ من الماء ولو كان رذاذاً يذهب بالتراب .

والذى ينفق ماله رئاءَ الناس هو مَنْ تتضح له قضية الإيمان ، ولكن لم يثبت الإيمانُ فى قلبه بَعد ، فلو كنتَ تعلم أنك تريد أنْ تبيع سلعة وهناك تاجر يعطيك فيها ثمناً أعلى ، فلماذا تعطيها للأقلّ ثمناً ؟

إنْ فعلتَ فقد خبْتَ وخسرتَ فأوضح لك الحق : ما دُمْتَ تريد رئاء الناس فأنت لست مؤمناً بمن يشترى بأعلى ، فتكون فى عالم الاقتصاد تاجراً فاشلاً.

ولذلك قُلْنا : ليحذر كلُّ واحد حين يعطى أنْ يخاف من العطاء ، فالعطاء يستقبله الله بحُسْن الأجر ، ولكن عليه ألاَّ يعطى بضجيج ودعاية تفضح عطاءه ؛ ولذلك ذكر النبى ﷺ ضمن السبعة الذين يُظلهم الله فى ظِلّه يوم لا ظِلَّ إلا ظلّه : ((رجل تصدَّق بصدقة ، فأخفاها ، حتى لا تعلمَ شماله ما تنفق يمينه)) **[أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة]**

إن العبد الصالح حين يعطى فهو يعلم أن يده هى العليا ، ويده خير من اليد السُفلى ، فليستر على الناس المحتاجين سُفْلية أيديهم ولا يجعلها واضحة.

ولكـن الحق سبحانه لا يريد أنْ يُضيِّق مجال الإعطاء ، فقال : ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾ [البقرة]

فإبـداء الصدقات لا مانعَ منه . إنْ كان مَنْ يفعل ذلك يريد أنْ يكون أُسْوة المهم أنْ يخرج الرياءُ من القلب لحظة إعطاء الصدقة ، فالحق يوضح: إيـاك أن تنفقَ وفيك رئاء ، أما مَنْ يُخرج الصدقة ، وفى قلبه رياء ، فالله لا يحـرم المحتاجـين مـن عطاء مُعْطٍ ؛ لأنه سبحانه يؤكد : خُذوا منه وهو الخاسر، لأنه لن يأخذ ثواباً ، لكن المجتمعَ ينتفع .

إن الـذين ينفقون أموالهم رئاء الناس هم الذين لا يؤمنون بالله ، لأنه سـبحانه هـو المعطـى ، وهو يحب أنْ يضع المسلمُ عطاءه فى يده ؛ ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، فلو كانوا يؤمنون باليوم الآخر لاستحضروا الجزاء الباقى ، فأنت إذا كنتَ تحب نعمتك ، فَخُذْ النعمة ، وحاول أنْ تجعلها مثمرة ، أى : كثيرة الثمار .

أمـا الذين ينفقون أموالهم ابتغاءَ مرضات الله ، فيُقَرِّب الله لهم مثلاً ، فيقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ [البقرة]

إن ابتغاءَ مرضاة الله فى الإنفاق تعنى خروجَ الرياء من دائرة الإنفاق،

فيكون خالصاً لوجهه سبحانه ، وأما التثبيت من أنفسهم فهو لأنفسهم أيضاً ، فكأن النفسَ الإيمانية تتصادم مع النفس الشهوانية ، فعندما تطلب النفس الإيمانية أيَّ شيء ، فإن النفس الشهوانية تحاول أنْ تمنعها ، وتتغلَّب النفسُ الإيمانية على النفس الشهوانية ، وتنتصر لله .

والمراد بـ ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ هو أنْ يتثبت المؤمن على أن يحب نفسه حُباً أعمق ، لا حُباً أحمق .

إذن : فعملية الإنفاق يجب أنْ تكون أولاً إنفاقاً فى سبيل الله ، وتكون بتثبيت النفس بأنْ وهب المؤمن أولاً دمه ، وثبَّت نفسه ثانياً بأنْ وهبه المال ، وهكذا يتأكد التثبيت ، فيكون كما تُصوِّره الآية الكريمة : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ [البقرة]

والجنة - كما عرفنا - تُطلق فى اللغة على المكان الذى يُوجد به زرع كثيف أخضر ، لدرجة أنه يستر مَنْ يدخله ، ومنها ((جَنَّ)) أى : ستر . ومَنْ يدخل هذه الجنة يكون مستوراً .

إن الحق سبحانه يريد أنْ يضرب لنا المثل الذى يُوضح الصنف الثانى من المنفقين فى سبيل الله ابتغاءَ مرضاته ، وتثبيتاً من أنفسهم الإيمانية ضد النفس الشهوانية ، فيكون الواحدُ منهم كمَنْ دخل جنةً كثيفةَ الزرع ، وهذه الجنة توجد بربوة عالية .

وعندما تكون الجنةُ بربوة عالية ، فمعنى ذلك أنها مُحاطة بأمكنة وطيئة ومنخفضة عنها ، فماذا يفعل المطرُ بهذه الجنة التى توجد على ربوة ؟

إن الحق يخبرنا أن مَنْ ينفق ماله ابتغاءَ مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل هذه الجنة التى تُروى بأسلوب ربانى ، فإنْ نزل عليها وابلٌ من المطر أخذتْ منه حاجتها ، وانصرف باقى المطر عنها .

﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ .. ﴿٢٦٥﴾ ﴾ [البقرة] والطَّل هو المطر والرذاذ الخفيف يكفيها لتؤتى ضِعْفَيْن من نتاجها ، وإذا كان الضِّعف هو ما يساوى الشىء مرتين فالضِّعْفان يساويان الشىء أربع مرات .

والحق سبحانه يقول عن القتال فى سبيل الله : ﴿ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [النساء]

فالقتال إنما جاء ليسيطر منهج الله سبحانه ، وحينما يقول تعالى : ﴿ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [النساء] ، فهذا يدلُّنا على أن هناك قتالاً فى غير سبيل الله ، كأنْ يقاتل الرجلُ حميةً ، أو ليُعلَمَ مكانه من الشجاعة ، فقتال الرجل دائماً حَسْب نيته .

ولذلك تساءل بعض الناس : مَن الشهيد ؟ فقيل : هو مَنْ قاتل لتكونَ كلمة الله هى العليا فيكون شهيداً . إذن : فالقتال مرّة يكون فى سبيل الله ، ومرّة يكون فى سبيل النفس ، ومرة يكون فى سبيل الشيطان .

والحق سبحانه يؤكد على أن القتال يجب أنْ يكون فى سبيل الله ؛ لأنه سبحانه يريد أنْ يضع حَدّاً لجبروت البشر ، فلا بُدَّ أن تكون نيةُ القتال فى

سبيل الله ، لا أنْ يكون القتالُ بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان ، فلا قتالَ من أجل الجاه أو المال أو لضمان سوق اقتصادى ، وإنما القتال لإعلاء كلمة الله ، ونُصرْة دين الله ، هذا هو غرض القتال فى الإسلام .

ولـــذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة]

والحـــق ينهـــى عـــن الاعتداء . ى : لا يقاتل مسلم مَنْ لم يقاتله ولا يعـــتدى، ففى قتال النساء والصبيان والعجزة اعتداءٌ ، وهو سبحانه لا يحب المعتدين .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة]

ومـــا دام الله قد اشترى من المؤمن نفسَه فيجب على المؤمن ألاَّ تُهمه نفـــسه فيدخل المعركةَ بالصفقة الإيمانية ، فإذا أهمَّتْهُ نفسه يبدأ القلق والبلبلة والاضطراب وتوهُم الأشياء .

ومـــا دام سبحانه هو الذى اشتراه فلا بُدَّ أن الثمنَ كبيرٌ ، فالمؤمن هنا يعطى الدنيا ليأخذَ الآخرة التى تتمثل فى الجنة والجزاء ومنزلة الشهداء .

تلك هى الصفقة التى يعقدها الحق مع المؤمنين ، وهو سبحانه يريد أن

يعطيــنا ما نتعرف به على الصفقات المربحة ، فكلٌّ منا في حياته يحب أنْ يعقد صفقة مُربحة بأن يعطى شيئاً ، ويأخذ شيئاً أكبر منه .

لذلك يقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى : ﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فاطــر] ، فالحق سبحانه يُنمِّى فينا قيمة الصفقة الإيمانية ، ويعلم أن كل إنسان يحب الخير لنفسه ، فلا يظنَّ أحدٌ أن الدين جاء ليسلبه الحرية أو ليستذلَّه ، فالدِّين إنما جاء ليُرتِّبَ للمؤمن النفعية ويُنميها له .

وكلمة (اشترى) تدل على أن هناك صفقة ، عملية بيع وشراء ، وإذا كــان هــذا مِلْكاً لله ، فالله هو المشترى ، والله هو البائع . وما الثمن ؟ يأتى التحديد من الحق سبحانه ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ .. ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة]

هذا هو الثمن الذى لا يفنى ولا يَبْلَى ، ونعيمك فيها على قدر إمكانات الله التــى لا نهايةَ لها ، أما نعيمك فى حياتك فهو على قدر إمكاناتك أنت فى أسباب الله ، وهكذا يكون الثمنُ غالياً .

والــثمن هو الجنة ، وهو وَعْد بشىء يأتى من بعد ، ولكنه وَعدٌ ممَّن يملك إنفاذه ، فالوعد الحق هو مِمَّن يملك ويقدر ، وحىَّ لا يموت .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا .. ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة]

والمؤمن يستقبل هذا بأنه سوف يحدث حتماً ، وما دام الحق قد أعطى الوعد ، فلن يوجد مَنْ هو أوْفى منه ، فالعهد الحقيقى إنما يُؤخذ من الله ، فلا أحــدَ أوْفــى مــن الله بالعهد ، وما دام الوعد بالجنة فالجنةُ لا يملكها إلا هو سبحانه ، ووَعْده حق .

وحـــين يقول الحق سبحانه : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم .. ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة] ، فقد يفهم أحدٌ أن النفس سوف تضيع ، وأن الأمـــوال ســـوف تُنفق ، وهذا يُقبض النفس ، فهذا فيه الموت وخسارة للمال ، وكان من الطبيعى أنْ يشحب وجهُ الإنسان ويفزع ويخاف .

ســـاعةَ يقـــول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ ﴾ تجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور والبِشْر ويحدث له تهلُّل وإشراق ، مع أنه هنا سيأخذ نفسه ، لكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة .

إذن : قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أنْ تُصيبنا بالخوف ، بل علينا أنْ نـــستقبلها بالاستبـــشار ، فليظهـــر ثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً. ولذلك فقضية الإيمان بالله واليوم الآخر هو مطلوبُ الحق سبحانه مـــن أنْ يكون العملُ خالصاً لله ابتغاءَ مرضاته ، لا ابتغاءَ السمعة والصيت بين الناس ، لا رياء ونفاقاً .

فالرياء مُحبط للعمل ومَاحِقٌ للثواب ودليلٌ على ضَعْف إيمان صاحبه ، وحـــين يرجع لربه لن يجد له شيئاً من ثواب الآخرة ، لأنه أخذ ما أراده فى الدنيا من المجد والصيت والذكر بين الناس فليس له فى الآخرة من نصيب .

فعـــباد الله يبتغون بأعمالهم وجه الله ، فنياتهم خالصةٌ لله ، لا يبتغون من خَلْقه ذكراً ولا صيتاً ولا مجداً ، فتواضعهم ومَشْيهم على الأرض هَوْناً ، ومخاطبتهم الجاهلين بالحسنى ، وبياتهم لربهم سُجَّداً وقياماً ، ودعاؤهم لله أن يصرف عنهم عذاب جهنم ، وإنفاقهم ، كل هذا لا يرجون رضا أحد إلا الله ، فلا يدعون مع الله إلهاً آخر ، بل إله ولحد .

كما قال تعالى : ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل]

وقد جاء النهى فى الآية نتيجة خروج الإنسان عن مراد ربه سبحانه ، فالعجـيب أن البشر والجن أيضاً ــ يعنى الثقلين ــ هم المختارون فى الكون كله ، اختيار فى أشياء ، وقَهْر فى أشياء أخرى ، ومع ذلك لم يشذ من خَلْق الله غيرهما

فالسماوات والأرض كان لها لختيار ، وقد اختارتْ التسخير ، وانتهت المـسألة فـى بدايـة الأمر ، ومع ذلك فهى مُسخَّرة وتؤدى مهمتها لخدمة الإنـسان ، فالشمس لم تعترض يوم ولم ترفض ، فهى تشرق على المؤمن كمـا تشرق على الكافر ، وكذلك الهواء والأرض والدابة ، وكل ما فى كَوْن الله مُسخَّر للجميع .

فكل هذه الأشياء لها مهمة وتؤدى مهمتها على أكمل وجه ؛ يقول تعالى فى حَقّ هذه الأشياء : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج]

هكـذا بالإجماع ، لا يتخلَّف منها شىءٌ عن مراد ربه ، فما الحال فى الإنسان ؟ يقول تعالى : ﴿ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ .. ﴿١٨﴾ ﴾ ولم يَقُلْ : والناس ثم قال : ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج]

هـذا هو الحال فى الإنسان المُكرَّم الذى اختاره الله وترك له الاختيار،

أمـــا كل الأجناس فهى مؤدية واجبها لأنها أخذت حظها من الاختيار الأول فاختارتْ أنْ تكونَ مُسخَرة ، وأن تكون مقهورة .

فالإنسان .. أحدهم يقول : لا إله فى الوجود ، العالم خُلِقَ هكذا بطبيعته . وآخـــر يقـــول : بل هناك آلهة متعددة فالعالم به مصالحُ كثيرة وأشياء لا يـــنهض بها إلهٌ واحد . يعنى : إلهٌ للسماء ، وإله للأرض ، وإله للشمس .. الخ .

فـــيا مَـــنْ تـــشفق على الإله الولحد أن يتعب من إدارته للكون بشتى نواحـــيه، ارتفع بمستوى الألوهية عن أمثال البشر ، لأن الله تعالى لا يباشر سلطانه علاجاً فى الكون ، وإنما يباشره بكلمة ((كُنْ)) .

إذن : إلـــهٌ واحـــد يكفى ، وما دُمْنا سلَّمنا بإله واحد ، فإياك أنْ تقول بـــتعدُّد الآلهة ، وإذا كان الحق تبارك وتعالى نفى إلهين اثنين ، فنَفْى ما هو أكثر من ذلك أوْلَى ، واثنان أقلّ صُور التعدُّد .

ومعنى (إِلَـٰهَيْنِ) أى : معبودين ، فيكون لهما أوامر ونَوَاهٍ ، والأوامر والنواهـــى تحـــتاج إلى طاعة ، والكون يحتاج إلى تدبير ، فأىُّ الإلهين يقوم بتدبير أمور الكون ؟ أم أنه يحتاج إلى مساعد ؟ إنْ كان يحتاج إلى مساعد ، فهذا نقصٌ فيه ، ولا يصلح أنْ يكون إلهاً .

وكذلك إنْ تخصَّص كلٌّ منهما فى عمل ما ، هذا لكذا ، وهذا لكذا ، فقد أصبح أحدهما عاجزاً عما يقوم به الآخر ، وأىُّ ناحية إذن من نواحى الحياة تكون هى المسيطرة ؟ ومعلوم أن نواحى الحياة مشتركة ومتشابكة .

لـــذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا

لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون]

وقال : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء]

فكيف الحال إذا أراد الأول شيئاً ، وأراد الآخر ألاَّ يكون هذا الشيء ؟ فإنْ كان الشيءُ كان عَجْزاً فى الثانى ، وإنْ لم يكُنْ كان عجزاً فى الأول . إذن : فقوة أحدهما عجزٌ فى الآخر .

ونلحظ فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل] عِظَة بليغة ، كأنه سبحانه حينما دعانا إلى توحيده يقول لنا : أريحوا أنفسكم بالتوحيد ، وقد أوضح الحق هذه الراحة فى قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر]

يعنى : رجل خُلِّص لسيد واحد ، ورجل أسياده كثيرون ، وهم شركاء مختلفون ، فإنْ أرضى هذا أغضب ذاك ، وإن احتاجه أحدهما تنازعه الآخر، فهو دائماً مُتعب مُثقل ، أما المملوك لسيد واحد فلا يخفى ما فيه من راحة .

ففى أمره سبحانه بتوحيده راحةٌ لنا ، وكأنه سبحانه يقول : لكم وجهة واحدة تكفيكم كل الجهات ، وتضمن لكم أن الرضا واحد وأن البُغْض واحد .

إذن : فطلبه سبحانه راحةٌ لنا ؛ لذلك قبل أن يطلبها منا شهد بها لذاته تعالى ، فقال : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

فلو قال معترض : كيف يشهد لذاته ؟ نقول : نعم ، يشهد لذاته سبحانه، لأنه لا أحدَ غيره ، لا أحدَ معه ، فشهادة الذات للذات هنا شيء طبيعي وكأنه سبحانه يقول : لا أحدَ غيرى ، وإنْ كان هناك إلهٌ غيرى فلْيُرنى نفسه ، وليفصح عن وجوده .

أنا الله خلقتُ الكون وأخذتُه وفعلتُ كذا وكذا ، فإما أنْ أكون صادقاً فيما قلت وتنتهى المسألة ، وإما أنْ أكون غير صادق ، وهناك إله آخر هو الذى خلق ، فأين هو ؟ لماذا لا يعارضنى ؟

وهذا لم يحدث ولم ينازع اللهَ فى خَلْقه أحدٌ ، وحين تأتى الدعوى بلا معاند ولا معارض تَسلّم لصاحبها ، فمنْ قال قائل : لعل الآلهة الأخرى لم تدْرِ بأن أحداً قد أخذ منهم الألوهية ، فإنْ كان الأمر كذلك فهم لا يصلحون للألوهية لعدم درايتهم ، وإنْ دروا ولم يعارضوا فهم جبناء لا يستحقون هذه المكانة .

وبشهادته سبحانه لذاته بأنه لا إله إلا هو أقبل على خَلْق الخَلْق ، لأنه ما دام يعرف أنه لا إله غيره ، فإذا قال ((كُنْ)) فهو واثق أنه سيكون ؛ ولذلك ساعة يحكم الله حكماً غيبياً يقول : أنا حكمتُ هذا الحكم مع أنكم مختارون فى أنْ تفعلوا أو لا تفعلوا ، ولكنى حكمتُ بأنكم لا تفعلون ، وما دُمْت حكمتُ بأنكم لا تفعلون ولكم قدرة ْن تفعلوا ، ولكن ما فعلتم ، فهذا دليل على أنه لا إلهَ غيرى يعينكم على أنْ تفعلوا .

ثم شهدتْ الملائكة على شهادة الذات ، وشهد أولوا العلم شهادةَ الاستدلال كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

والحق سبحانه له ما فى السماوات وما فى الأرض ، فليس لأحد غيره ملكية مستقلة ، وما دام ليس لأحد غيره ملكية مستقلة .

إذن : فليس نه ذاتية وجود ؛ لأن وجوده الأول موهوبٌ له ، وما به قيام وجوده موهوبٌ له ، لذلك يقولون : مَنْ أراد أن يعاند فى الألوهية يجب أنْ تكون له ذاتيةُ وجود ، وليست هذه إلا لله تعالى .

لذلك نقول لمن يعاند فى الألوهية : أنت لا تقدر ، لأن وجودك هبة ، وقيام وجودك هبة ، كل شيء يمكن أن يُنزع منك ، لذلك فالحق سبحانه وتعالى يُنبِّهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]

فهذا الذى رأى نفسه استغنى عن غيره - من وجهة نظره - إنما هل استغنى حقاً ؟ لا ، لم يستَغْنِ ، بدليل أنه لا يستطيع أنْ يحتفظَ بما يملك .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾[النحل]

الذى له ما فى السماوات والأرض ، وبه قيامُ وجوده بقيومته ، فهو سبحانه يُطمئنك ويقول لك : أنا قيُّوم - يعنى : قائم على أمرك ، ليس قائماً فقط ، بل قَيوم بالمبالغة فى الفعل ، وما دام هو سبحانه القائم على أمرك إيجاداً من عدم ، وإمداداً من عُدْم . إذن : يجب أنْ تكون طاعتُك له سبحانه لا لغيره .

والحق سبحانه له الطاعة والخضوع دائماً مستمراً ، ومُلْك الله دائم ، وهو سبحانه لا يُسلم مُلْكه لأحد ، ولا تزال يد الله فى مُلْكه ، وما دام الأمر

هكذا ، فالحق سبحانه يسألهم : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النحل]

والهمـــزة هنا استفهام للإنكار والتوبيخ ، فلا يحوز أنْ تتقى غير الله ، لأنه حُمْق لا يليق بك ، وقد عملتَ أن لله ما فى السماوات وما فى الأرض ، وله الطاعة الدائمة والانقياد الدائم ، وبه سبحانه قامت السماوات والأرض ، ومنه سبحانه الإيجاد من عدم والإمداد من عُدْم .

إذن : فمـــن الحُمْـــق أن تتقى غيره ، وهو أَوْلَى بالتقوى ، فإن اتقيتُم غيره فذلك حُمْق فى التصرف يؤدى إلى العَطَب والهلاك ، إن اغتررتُم بأن الله تعالى أعطاكم نِعماً لا تُعَدُّ ولا تُحصى .